الإنسان

عناصر الموضوع

مفهوم الإنسان	٣٢٢
الإنسان في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٤
الغاية من خلق الإنسان	٣٢٨
خلق الإنسان	٣٣٢
الإنسان بين الإيمان والكفر	٣٤٩
صفات الإنسان	٣٥٤
الإنسان والشيطان	٣٦٥
نداءاتٌ ووصايا للإنسان	٣٧٠

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الإنسان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (أ ن س) في اللغة حول معنيين رئيسين هما: الظهور والنسيان.

الأول: الظهور:

قال ابن فارسٍ: «الهمزة والنون والسين أصلٌ واحدٌ، وهو ظهور الشيء، وكل شيءٍ خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال: آنست الشيء، إذا رأيته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[النساء: ٦]. والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه»(١). فالإنسان: من الإنس خلاف الجن، أو من الأنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس به(٢).

الثاني: النسيان:

أورد ابن منظور في لسان العرب عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما- أنه قال: «إنما سمي الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسي»(٣).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أبو البقاء الكفوي أن بعض الناس جعل الإنسان هو: المعنى القائم بالبدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، وهو قول الأحناف والغزالي، وجعله آخرون الهيكل المحسوس، وهو قول جمهور المتكلمين(٤).

وقد أورد الأشعري في (مقالات الإسلاميين) تسعة عشر قولًا في تعريف الإنسان(٥)، أرجحها القول الثالث، وذلك أن ماهية الإنسان وحقيقته لا تكون من دون جسدٍ وروحٍ، فالإنسان مجموع الروح والجسد، ولذا يسميه بعضهم حيٌّ ناطقٌ أو حيوانٌ ناطقٌ،كما عرفه الجرجاني بقوله: الإنسان هو الحيوان الناطق(٦).

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.
والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٨/ ٢٦٨٧، رقم ١٥١١٣.
(٤) الكليات، الكفوي ص١٩٨-١٩٩.
(٥) مقالات الإسلاميين، الأشعري ٢/ ٢٥-٢٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٣٨.

الإنسان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أنس) في القرآن (٩٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٢٧:]
اسم الفاعل	١	﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]
اسم	٩٠	﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾[الإنسان:٢]

وجاء الإنسان في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: آدم عليه السلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون:١٢].

الثاني: جنس بني آدم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾[النازعات:٣٥].

الثالث: أحد أبناء آدم بعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾[العلق:٦]. أريد به: أبو جهل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٩٣-٩٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٦٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٣١-٣٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٧٦-١٨٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٢٩-١٣٢.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ بنو آدم:

بنو آدم لغة:

بنو: أصلها: بنون، حذفت النون للإضافة، وهي جمع ابن، وتجمع أيضًا على أبناء[(١)].

وآدم: أبو البشر.

وأديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها، وقيل سمي آدم عليه السلام لأنه خلق من أدمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جعلت فيه[(٢)].

بنو آدم اصطلاحًا:

هم الناس[(٣)]، وبنو أبي البشر[(٤)].

الصلة بين الإنسان وبني آدم:

من الألفاظ التي يستعملها القرآن مرادفةً للفظ (الإنسان) لفظ (بني آدم)، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم سبع مراتٍ، ومن خلال القراءة المتأنية لهذه المواضع تبين أن هذه المواضع فيها تذكير بأن الإنسان له أصلٌ واحدٌ، وهو آدم عليه السلام، وفيها تذكيرٌ وإحالةٌ إلى الحيثيات الملابسة لقصة آدم عليه السلام، واستدعاء لأحداث تلك القصة وللمعاني المرتبطة بها.

٢ الإنس:

الإنس لغة:

جماعة الناس، والجمع أناسٌ، وهم الأنس. تقول: رأيت بمكان كذا وكذا أنسًا كثيرًا، أي: ناسًا كثيرًا. والإنس: خلاف الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس. والإنس: البشر، الواحد إنسيٌ وأنسيٌ أيضًا، والجمع أناسي[(٥)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٨٩ .
(٢) انظر: العين،الفراهيدي، ٨/ ٨٨ .
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣ .
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص١٤
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٠٤، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.

الإنس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهم: بنو آدم، سموا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناسٍ، فهم يأنس بعضهم ببعضٍ، ويتحرك بعضهم إلى بعض[١].

وقيل: سمي بذلك؛ لظهوره، وإدراك البصر إياه، فيقال: آنست الشيء: إذا أبصرته، فهو بذلك ضد الجن.

الصلة بين الإنسان والإنس:

الإنسان في الاستعمال القرآني غير الإنس وإن كان بينهما ملحظٌ مشتركٌ من الأصل اللغوي لمادة (أ ن س) في دلالتها على نقيض التوحش،إلا أن لفظ (الإنس) يأتي دائمًا مع لفظ (الجن) على وجه التقابل، يطرد ذلك ولا يتخلف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر (الإنس) وعددها ثماني عشرة آية[٢]، ومن خلال القراءة المتأنية لتلك الآيات تبين أن الإنسية تعني عدم التوحش، وهو المفهوم صراحةً من مقابلتها بالجن في دلالتها أصلًا على الخفاء الذي هو قرين التوحش، وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناسٍ أخرى خفيةٍ مجهولةٍ لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا[٣].

٣ الناس:

الناس لغة:

اسمٌ للجمع من بني آدم، واحده: إنسانٌ من غير لفظه، قيل: أصله أناسٌ، فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام، وقيل: قلب من نسي، وأصله إنسيان على إفعلان، وقيل: أصله من ناس ينوس إذا اضطرب.

والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون غيرهم في تناوله اسم الناس تجوزًا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به، فإن كل شيءٍ عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه[٤].

قال الكفوي: الناس: هو اسم جمعٍ؛ ولذلك يستعمل في مقابلة الجنة: وهي جماعة الجن[٥].

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٢٠.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبدالباقي ص١١٥.
(٣) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٩٦٢.
(٥) الكليات، الكفوي ص٩١٢.

Made searchable using ScribeTools.com

الناس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الإنسان والناس:

لفظ الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف -كذلك- عن لفظ الناس، فقد ورد لفظ الناس في القرآن الكريم نحو مائتين وأربعين مرةً بدلالةٍ واضحةٍ على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، أو هذا النوع من الكائنات في عمومه المطلق. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣][(١)].

٤ البشر:

البشر لغة:

(بشر) الباء والشين والراء أصلٌ واحد: ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، والبشر: الإنسان.

البشر اصطلاحًا:

والبشر: هم الخلق، يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع[(٢)].

وإطلاق البشر على الإنسان اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوان الذي عليه نحو صوف أو شعر[(٣)].

الصلة بين الإنسان والبشر:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف- كذلك- عن البشر، فاستقراء مواضع ورود (بشر) في القرآن كله، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وفيها يلتقي بنو آدم جميعًا على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة. وبهذه الدلالة، ورد لفظ البشر، اسم جنس، في خمسةٍ وثلاثين موضعًا من القرآن الكريم، منها خمسة وعشرون موضعًا في بشرية الرسل والأنبياء، مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر. وقد تأتي الآيات في تقدير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعًا، لكن السياق فيها شاهد على

(١) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٥٩.
(٣) انظر: التعاريف، المناوي، ص١٣٢.

هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصًا[1]. والبشر يقتضي حسن الهيئة؛ وذلك أنه مشتقٌ من البشارة وهي حسن الهيئة، ولذلك استعمل في سياقاتٍ دالة على القدرة والإعجاز، في تخليق بشر ظاهر الهيئة من الماء أو الطين[2].

٥ الأنام:

الأنام لغةً:

الأنام هم ما على ظهر الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر: الأنيم[3].

الأنام اصطلاحًا:

هم الجن والإنس[4].

الصلة بين الإنسان والأنام:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف عن الأنام، فقد ورد لفظ الأنام في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠].

ونلحظ من خلال السياق العام للسورة الكريمة أن اللفظ يشمل الثقلين الإنس والجن على الراجح؛ لأن الخطاب في سورة الرحمن لهما[5].

(١) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٥-١٧.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٦، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص ٨٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٣٨٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٧.
(٥) انظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص٨٣.

Made searchable using ScribeTools.com

الغاية من خلق الإنسان

إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأوجد الموجودات لغايةٍ يريدها، وحكمةٍ يعلمها، ولم يخلقهم سدًى، ولم يتركهم هملًا. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم تلك الغاية وهي متمثلة في أمرين: أحدهما: تحقيق العبودية لله عز وجل . والثاني: تحقيق عمارة الأرض. وفي المطلبين الآتيين تفصيلٌ لهذين الأمرين.

أولًا: تحقيق العبودية:

لعل الغاية الأسمى التي خلق لأجلها الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى بجميع أنواعها.وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتلك غايةٌ عظيمةٌ ساميةٌ عليها مدار سعادة الإنسان. قال الإمام النووي رحمه الله: « وهذا تصريحٌ بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفادٍ لا محل إخلادٍ، ومركب عبورٍ لا منزل حبورٍ»[(١)].

وأهل الإيمان يوقنون في قرارة أنفسهم بذلك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له»[(٢)].

لكن ما معنى العبودية؟ وما حقيقتها ؟

العبادة لغةً: معناها: الانقياد والذل والخضوع[(٣)].

قال الأزهري:« العبادة: الطاعة مع الخضوع. ويقال: طريقٌ معبدٌ إذا كان مذللا بكثرة الوطء»[(٤)]. وقال الراغب: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]»[(٥)].

والمعنى الاصطلاحي للعبادة، لا يخرج عن المعنى اللغوي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة »[(٦)].

ويضيف أيضًا: « وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

(١) رياض الصالحين، النووي ص٩-١٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٣.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٢٣٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥-٢٠٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٧٦.

(٤) تهذيب اللغة، ٢/ ٢٣٤.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٩.

(٦) العبودية، ابن تيمية ص١٩.

﴿الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]»[1].

وهذا تعريفٌ شاملٌ للعبادة بكل أنواعها وحالاتها. فالعبودية مفهومٌ شاملٌ لكل عملٍ إنساني صالحٍ يقصد به وجه الله في هذه الحياة.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وتحقيق العبادة يقتضي أن يجعل الإنسان حياته وسائر أفعاله وتصرفاته وعلاقاته مع الناس وفق المناهج التي وضعتها الشريعة الإسلامية.

وحقيقة العبادة: « هي استسلام القلب والجوارح لله حبًا وخضوعًا له، وخوفًا من عقابه، لا شريك له في شيءٍ من ذلك ألبته، فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه»[2].

وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم- كانت دعوتهم أساسها تحقيق العبودية لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكذلك قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١].

والعبودية لرب العالمين غاية كمال المتقين، فقد جعل الله سبحانه وتعالى العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، وأعلاهم منزلة لديه في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وبها افتتح عيسى عليه الصلاة والسلام كلامه وهو في المهد فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) العبادة، سليمان العثيم ص١٣.

Made searchable using ScribeTools.com

.[٣٠

يقول شارح الطحاوية رحمه الله: «واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»[(١)].

ثانيًا: عمارة الأرض:

لاشك أن الغاية الأساسية من وجود الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومع هذا فليست الغاية من الخلق محصورةً فقط على العبادة كما ظن كثيرٌ من الناس، حيث إن الآية لم يقصد منها الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية فحسب، ولكن الله عز وجل هيأ الإنسان لأمرٍ آخر لا يتعارض مع تحقيق العبودية، ألا وهو عمارة الأرض واستخلافه.

فالله سبحانه وتعالى استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته.

قال صالح عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

لكن ما معنى الاستعمار؟ وما حقيقته؟

الاستعمار لغةً: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران[(٢)].

يقول الراغب الأصفهاني: «العمارة نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه يعمرها عمارةً، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة:١٩]. ويقال: عمرته فعمر فهو معمورٌ. قال: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩].

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ [الطور:٤].

وأعمرته الأرض واستعمرته: إذا فوضت إليه العمارة، قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]»[(٣)].

والمعنى الاصطلاحي للاستعمار لا يختلف عن معناه اللغوي، فيراد به: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، ويراد به كذلك: التمكين والتسلط، كما هو واضحٌ من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠]. وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿الَّذِي

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص١٠٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٣٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٠١، تاج العروس ١٣/ ١٢٩.

(٣) المفردات، ص٣٤٧.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾[طه: ٥٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥][(١)].

والمقصود بعمارة الأرض: «جعلها عامرةً غير خلاءٍ وذلك بالبناء والغرس والزرع»[(٢)].

ويعد إعمار الكون ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، فلا بد للإنسان من أن يكتشف ويخترع من أجل تذليل العقبات التي تعترض طريقه، وتحول بينه وبين تحقيق ما يطمح إليه من سبل العيش الآمن والحياة الكريمة. قال ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٨٨].

قال: «وهذا استدعاءٌ لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة، وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزةً من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزةً للبلغاء من جانبه النظمي»[(٣)].

وذكر الألوسي أن معنى قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١].

أي: جعلكم عمارها وسكانها فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أعمرته الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها. وذكر معنى آخر، وهو أنه أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن، وحفر أنهار، وغرس أشجار، وغير ذلك، فالسين للطلب.

واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب». فلا تستقيم حياة الإنسان بدونها.

ولا يقصد هنا؛ أن تكون عمارة الأرض بالعلم المادي فقط، فلو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود بحسن العمل، لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أثبت تميز الأمم أصلًا في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا؛ كما قال تعالى عن الأمم السابقة:

﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم: ٩].

وقال عن علمهم المدني ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. فالمقصود من عمارة الأرض تحكيم شريعة الله تعالى في أرضه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٥٧.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٨-٤٩.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء- عليهم السلام-، كما أن البعد عن هذا الهدي السماوي يجلب فيما يجلب التعاسة والحروب، وسقوط الحضارة.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

خلق الإنسان

يعد خلق الإنسان آيةً من آيات الله عز وجل العظيمة، خصوصًا إذا علمنا أن عملية الخلق هذه قد مرت بمراحل عديدةٍ وأطوار مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٤].

ومن الواضح أنه قبل عملية الخلق هذه، قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورًا، فأوجده الله بعد أن لم يكن موجودًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧][1].

وقد خلق الله عز وجل الإنسان على أربعة أوجهٍ:

الأول: خلق آدم عليه السلام من غير ذكرٍ ولا أنثى.

الثاني: خلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى.

الثالث: خلق المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام من أنثى بلا ذكر.

الرابع: خلق سائر البشر من ذكر وأنثى.

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة مؤلفين ص٧٧٩.

أولًا: خلق آدم عليه السلام:

أخبر الحق سبحانه وتعالى عن خلق آدم عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكذلك ورد الحديث عن خلق آدم في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خلق آدم عليه السلام يمكن أن نقول بأن «خلق آدم عليه السلام مر في ثلاثة أطوارٍ رئيسةٍ هي:

أولا: طور التخليق.

ثانيًا: طور التصوير.

ثالثًا: طور نفخ الروح »[1].

الطور الأول: طور التخليق.

ويتضمن أربع مراحل رئيسةٍ هي:

المرحلة الأولى: التراب.

يعد التراب المرحلة الأولى والبداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي: آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[آل عمران: ٥٩]. فهذه الآية صريحة في أن آدم عليه السلام خلق من تراب، فالهاء في قوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ تعود على آدم عليه السلام .

المرحلة الثانية: من طينٍ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي يصير فيها التراب طينًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾[ص: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]. والطين ناتج عن خلط التراب بالماء. ويلاحظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام ، كان: طينًا لازبًا. يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾[الصافات: ١١].

واللازب: هو الثابت شديد الثبوت[2].

المرحلة الثالثة: خلقه من حمأ مسنونٍ.

بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الكريم بالحمأ المسنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾[الحجر: ٢٦].

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصالٍ كالفخار.

والمراحل السابقة مجتمعة أدت إلى مرحلة الصلصال هذه: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرحمن: ١٤].

(١) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٦.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٤٩ .

Made searchable using ScribeTools.com

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قرع بشيء[1].

وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارًا؛ لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

هذا هو الطور الأول: طور التخليق، بمراحله الأربعة السابق ذكرها.

الطور الثاني: طور التصوير.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]. ويلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق[2].

الطور الثالث: طور نفخ الروح.

بعد أن سوى الله عز وجل الإنسان الأول وصوره، وهو آدم عليه السلام أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشرًا حيًا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

والنفخ: إجراء الريح في الشيء؛ وإنما سمى إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه[3].

[انظر: آدم: مراحل خلق آدم]

ثانيًا: خلق حواء:

لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام خلق له زوجه حواء عليها السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وقال سبحانه: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف: ١٨٩].

وقال جل شأنه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[الزمر: ٦].

فدلت هذه الآيات الكريمات على أن آدم عليه السلام قد خلق أولا، وأن حواء قد خلقت بعده. حيث ذكر جمهور المفسرين أن المراد ب (النفس الواحدة): آدم عليه السلام، والمراد بقوله تعالى: (زوجها): حواء عليها السلام[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٩١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٠٧، الجامع

وقد اختلف العلماء في كيفية خلق حواء على قولين مشهورين، وهما:

القول الأول: وهو قول جمهور المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآيات الكريمات قد نصت على أن حواء خلقت من آدم كما يقتضيه ظاهر قوله: ﴿مِنْهَا﴾، ولهذا قالوا بأن (من) في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزءٍ من آدم عليه السلام[1].

واختلفوا في الجزء الذي خلقت منه حواء على قولين:

الأول: قالوا بأنها خلقت من ضلع آدم، وممن قال بهذا الرأي: جماعةٌ من مفسري السلف رضوان الله عليهم.

واحتجوا عليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة خلقت من ضلعٍ، لن تستقيم لك على طريقةٍ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»[2].

الثاني: قالوا بأنها خلقت من بقية الطينة التي خلق منها آدم.

وقد حكى هذا القول ابن عاشور[3]، وشهاب الدين الخفاجي في (حاشيته على تفسير البيضاوي)[4]، وابن عادل في تفسيره (اللباب في علوم الكتاب)[5].

القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلمٍ الأصفهاني، أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: من جنسها.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل: ٧٢].

وكقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨][6].

والراجح – والله أعلم– أن حواء خلقت من جنس خلق آدم عليه السلام أي: من نفس العناصر التي خلق منها آدم، فالله خلق حواء من نفس نوع آدم كما خلق لنا من أنفسنا أزوجا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وأما ما جاء في الحديث (إن المرأة خلقت من ضلع) فلا يدل على أنه ضلع آدم، إنما يحمل على جهة التمثيل لاضطراب أخلاقهن، وكونهن لا يثبتن على حالة واحدة، أي: صعبات المراس، فهي كالضلع

لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٠٨.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨، ١/ ٦٧٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٥.

(٤) حاشية شهاب الدين الخفاجي ٣/ ٢٤٥.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ١٤١

(٦) تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص٩٦.

Made searchable using ScribeTools.com

العوجاء، كما جاء ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ويؤيد هذا قوله (إن المرأة) فأتى بالجنس، ولم يقل حواء[1].

[انظر: آدم: كيف خلقت حواء]

ثالثًا: خلق عيسى عليه السلام:

يعد خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب معجزةً دالةً على عظيم قدرة الله التي لا تحدها حدود ولا يقف أمامها مانع ليظهر للناس أنه عز وجل على كل شيءٍ قدير. وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق عيسى عليه السلام وحكى مراحل حياته المختلفة، وسأقتصر في حديثي عن خلق عيسى عليه السلام على أمرين:

الأول: البشارة بعيسى عليه السلام.

والثاني: الحمل بعيسى عليه السلام.

وفيما يأتي بيان لهذين الأمرين.

أولا: البشارة بعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم: ١٦ - ٢١]

لما بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، خرجت ذات يومٍ من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها،إذ فاجأها شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، ثم قالت له: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ [مريم: ١٨].

ولم يكن في خاطرها أنه ملك كريم، هو جبريل الأمين عليه السلام تمثل لها في صورة إنسان.قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: ١٧]

قال أبو حيان في تفسيره: « وإنما مثل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت، ولم تقدر على استماع كلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٦٣.

على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبرًا لعفتها»[1].

وحين ظهر لمريم بعد ذلك أن الذي عرض لها في خلوتها ليس بشرًا إنما هو ملك كريم، أنست واستبشرت به، ولكنها تعجبت من قوله حين بشرها بالغلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فهي امرأة بكر لم تتزوج ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء. وهي عفيفة لم تقارف إثمًا، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها؟! ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠﴾

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شيء، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم: ٢١].

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧].

أي: كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع[2].

ثانيًا: الحمل بعيسى عليه السلام.

بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ [التحريم: ١٢]

فالذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ: نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، بل من أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى. وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام لما نفخ في جيب درعها، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها . قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ [مريم: ٢٢].

واختلف العلماء في مدة الحمل على أقوال مضطربة متناقضة لا حاجة إلى ذكرها، والصحيح أنها حملت به حملًا طبيعيًا كما تحمل سائر النساء، ووضعته كما تضع

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٧٠.
(٢) النبوة والأنبياء ص٢٠١-٢٠٢.

Made searchable using ScribeTools.com

النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. بينت هذه الآية الكريمة أن عيسى عليه السلام خلق بأمرين: بكلمة من الله، وروح منه.

الأمر الأول: خلق عيسى عليه السلام بكلمة الله (كن).

جاء في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]. وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى خلقه بكلمةٍ منه، وهي (كن)، كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله ؛ لأنه خلقه بها[١]. وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران: ٤٥].

إن الكلمة من الله المذكورة في الآية مفسرة بأنها المسيح عيسى ابن مريم، بدليل أن الضمير في كلمة (اسمه) جاء مذكرًا مع أنه يعود على مؤنث (كلمة)، فلم يقل: بكلمة منه اسمها المسيح؛ لأن المراد بالكلمة مذكر، وهو عيسى عليه السلام، فذكر مراعاة للمعنى[٢].

الأمر الثاني: خلق الله عيسى عليه السلام بروح من الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١].

ذكر الإمام فخر الدين الرازي وجوه اختلاف أهل العلم في تأويل قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روحٌ، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل - عليه السلام- لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل، كما يقال: هذه نعمةٌ من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روحٌ. قال تعالى في صفة القرآن:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الثالث: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة: ٢٢].

أي: برحمة منه، فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث إنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨٠.
(٢) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص٣٣.

لا جرم سمي روحًا منه.

الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل، وقوله (منه) يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمرِ الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء: ٩١].

والراجح – والله أعلم– هو القول الأول، حيث إن عيسى عليه السلام سمي روحًا لكونه نشأ من الروح مباشرةً، ولأنه غلبت عليه الروحانية، وإن كان بشرًا كسائر البشر، يأكل ويشرب، ويمشي في الأسواق، و(من) هنا للابتداء، أي: أن الروح مرسل من عند الله تعالى، ونفخ بإذنه[(١)]. ويؤيد ذلك أن الآية جاءت في معرض الرد على النصارى الذين غالوا في المسيح عليه السلام.

رابعًا: خلق سائر بني آدم.

بعد أن خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وخلق منه زوجه حواء عليها السلام بين لنا في كتابه العزيز أطوار خلق ذرية آدم؛ إظهارًا لعظمته سبحانه وتعالى وقدرته، وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أن الإنسان يخلق على أطورٍ ومراحل متتاليةٍ. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[نوح: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾[الزمر: ٦]، أي: طورًا من بعد طورٍ.

ولقد تعرض القرآن الكريم إلى أطوار خلق الإنسان بأساليب مختلفةٍ، فمرةً يذكر أطوار الخلق كلها، وأخرى يكتفي بذكر طورٍ واحدٍ أو طورين، فالقرآن تناول الخلق في كل مرةٍ من زاويةٍ؛ لتكتمل الصورة، وذلك لحكمةٍ بيانيةٍ وبلاغيةٍ، لما يحققه هذا الأسلوب من العبرة والموعظة في إثبات القدرة الإلهية في مخلوقاته، والتي يرفضها الملحدون، لقصورٍ عقليٍ أو عنادٍ أو غرورٍ[(٢)]. ومن خلال تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بأطوار خلق الإنسان، نجد أن القرآن الكريم حدد أطوار خلق الإنسان الأساسية في ثلاثة أطوارٍ[(٣)]:

الطور الأول: طور النطفة.

النطفة– بضم النون– في لغة العرب: تعني القليل من الماء، وقيل: الماء القليل يبقى في القربة، وقيل: هي الماء الصافي

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨١.

(٢) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، عبدالرحمن المطرودي ص٥١.

(٣) الطور بالفتح: التارة، يقال: طورًا بعد طورٍ، أي تارةً بعد تارةٍ.
انظر: تاج العروس، ١٢/ ٤٣٩.

Made searchable using ScribeTools.com

قل أو كثر، والجمع نطفٌ ونطافٌ.[1]. وقد ورد التعبير بالنطفة في اثني عشر موضعًا من كتاب الله [2].

والنطفة أنواع ثلاثة:

١. نطفة الذكر: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.
٢. نطفة الأنثى: وهي البويضة.
٣. النطفة الأمشاج: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة[3].

مراحل تكوين النطفة:

يبدأ مصطلح النطفة من الحيوان المنوي والبويضة، وينتهي بمرحلة الحرث والانغراس، وتمر النطفة خلال تكونها بمراحل، أطلق القرآن الكريم على كل مرحلةٍ منها تسمية تتناسب مع تلك المرحلة، والمراحل التي تمر بها النطفة أربع[4]، وهي:

أولًا: مرحلة الماء الدافق.
ثانيًا: مرحلة السلالة.
ثالثًا:مرحلة النطفة الأمشاج.
رابعًا: مرحلة الحرث.

المرحلة الأولى من مراحل طور النطفة: مرحلة الماء الدافق.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٥ – ٦]

الدفق في كلام العرب صب الماء، وهو متعدٍ، يقال: دفقت الكوز فاندفق، وهو مدفوق.وأهل الحجاز يطلقون صيغة فاعل على المفعول كقولهم: هذا سرٌ كاتمٌ (أي مكتوم)، وهمٌ ناصبٌ (أي منصوب) [5].

و﴿دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق، اسم الفاعل بمعنى مفعول[6]. وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب ك(لابن، وتامر)، أي: ذي دفق وهو صادق على الفاعل والمفعول.

والراجح والله أعلم أن المراد: ماء ذي دفق؛ لأن تفسيرها على مدفوقٍ، يعد من صرف اللفظ عن ظاهره، فهم اعتبروا أن الماء الدافق مفعولًا وليس فاعلًا. ولكن الحقيقة أن للماء – بإذن الله– قوة دفق ذاتية. فهو بذلك فاعل وليس مفعولًا [7]. فالدافق

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ١٦/ ٤٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٥٧.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٧٩٨.
(٣) انظر:خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص١٠٩، إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٦.
(٤) انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص١٧-٢٧، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم، منى رفعت ص٥٧.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٥٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٣٩٦، القاموس المحيط الفيروزآبادي ص٨٨٣.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٨٤.
(٧) انظر: مراحل تطور خلق الإنسان في القرآن،

هو المندفق بشدة قوته[1]. وقد أثبت العلم الحديث أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة كشرط أساسي للإخصاب. وأثبت العلم أيضًا أن ماء المرأة الذي يحمل البويضة يخرج متدفقًا إلى قناة الرحم (فالوب)، وأن اندفاعة البويضة لابد أن تكون حيوية متدفقة حتى يتم الإخصاب[2].

والمراد بالماء الدافق عند المفسرين: مني الرجل ومني المرأة، وعبر عنهما بماء وهو مفرد؛ لأن الإنسان مخلوقٌ منهما، ولكن جعلهما ماءً واحدًا لامتزاجهما[3].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء في آياتٍ أخرى بأنه ماء مهينٌ ضعيفٌ ليس كالماء العادي المنطلق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨].

ووصفه الله جل وعلا في آيةٍ أخرى أنه نطفة أي قليل من الماء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٦].

ثم وصف الحق سبحانه وتعالى ذلك الماء الذي هو النطفة، بأنه يخرج من بين الصلب والترائب، ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٧].

والصلب في اللغة: جمعه أصلبٌ وأصلابٌ وهو فقار الظهر، وهو عظم من لدن الكاهل (الكاهل من الإنسان هو مابين كتفه) إلى العجب (أي:أصل الذنب، وهو العصعص). ويقال: هو من صلب فلان: أي من ذريته. والصلب: الشديد، وباعتبار الصلابة والشدة سمي الظهر صلبًا[4].

أما الترائب: فهي جمع تريبة، وقد اختلف في معناها على أقوالٍ[5].

والراجح- والله أعلم- هو ما ذهب إليه ابن جرير الطبري، وهو قول جمهور المفسرين، أن المراد بالترائب: هو موضع القلادة من الصدر، لأن ذلك هو المعروف

منى رفعت ص١٨٣، إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٢٦٢.

(٢) انظر: إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧-٦٩، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٤٩.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٥١٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٩٦، ، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٧٩، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٤٧.

Made searchable using ScribeTools.com

من كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم[١].

والمعنى: يخرج هذا الماء المنصب من موضع العمود الفقري وأضلاع الصدر التي تضع المرأة القلادة عليها[٢].

المرحلة الثانية من مراحل طور النطفة: مرحلة السلالة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٨﴾ [السجدة: ٨].

هذه الآية تشير إلى المرحلة الثانية التي تمر بها النطفة عبر رحلتها الطويلة من المهبل إلى البويضة ليتم التلقيح وهي مرحلة السلالة. والسلالة في اللغة: على وزن (فعالةٌ)، من سللت الشيء من الشيء: إذا استخرجته منه، والسل: انتزاع الشيء وإخراجه في رفقٍ[٣]. وفعالة تأتي للقليل من الشيء، نحو: القلامة، والنخالة[٤]. والسلالة: الخلاصة، وأصلها ما ينسل ويخلص بالتصفية[٥].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ قال: صفو الماء[٦]. وقيل في تفسير السلالة إنها خلاصة وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية.

ومن خلال معاني لفظة (سلالة) نستطيع أن نتلمس مدى انطباق هذه المعاني على النطفة (الحيوانات المنوية للرجل والبويضة للمرأة)، فقد ذكر علماء الطب أنه من بين مئات الملايين من الحيوانات المنوية التي توجد عادة في نطفة الرجل، ينسل حيوان واحد فقط منها كلها ليلقح بويضة المرأة التي تنسل هي بدورها من حويصلة البويضة، لتلتقي بسلالة الرجل في أنبوب الرحم. وبذلك تنشأ البويضة الملقحة، ويبدأ الحمل[٧]. وهذا هو ما تدل عليه لفظة السلالة من (التصفية والانتقاء) وهذا يؤكد لنا أيضًا دلالة اللفظة على (القلة) فهي عبارة عن جزء يسير جدًا من نطفة الرجل والمرأة.

ومن هنا نفهم سر الإعجاز الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيءٍ لم يمنعه شيءٌ)**[٨].

فالحديث صريحٌ في أنه ليس من كل الماء يكون الولد، وإنما من جزءٍ يسيرٍ

(١) جامع البيان ٢٤/ ٢٩٦.
(٢) تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص١١٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٩٢، العين، الفراهيدي ٧/ ١٩٢، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٠٧٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠١٥.
(٤) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٤/ ٢٠٥، معاني القرآن، النحاس ٤/ ٤٤٦.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٢١، محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٤٨١٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠١.
(٧) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ص٤٠.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب حكم العزل، رقم ١٣٣، ١/ ٦٥٦.

منه[١].

ولم يكتشف الحيوان المنوي والبويضة إلا في القرن السابع عشر مع اكتشاف المجهر، ولم يعرف دورهما الحقيقي في تكوين الجنين إلا في القرن التاسع عشر. أما القرآن الكريم فقد أعطى الحيوان المنوي والبويضة اسم (السلالة) وهي التسمية الأبلغ والأسهل والأصح علميًا، إذ إنها تعني النخبة المستخلصة والمنسلة من الشيء، وهي من صفات الحيوان المني وميزاتهما[٢].

المرحلة الثالثة من مراحل طور النطفة: مرحلة النطفة الأمشاج.

أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة من مراحل النطفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢].

والمشج في اللغة: الخلط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، والأمشاج: الأخلاط[٣].

قال ابن فارس: «الميم والشين والجيم أصلٌ صحيحٌ، وهو الخلط. ونطفةٌ أمشاجٌ، وذلك اختلاط الماء والدم. ويقال إن الواحد مشجٌ ومشج ومشيج»[٤].

ومن خلال استقراء أقوال أهل التفسير حول معنى (أمشاج) تبين أن أغلبهم متفقون على أن الأمشاج هي الأخلاط من ماء الرجل (الحيوان المنوي) وماء المرأة (بويضتها). ولكن الخلاف الذي وقع بين المفسرين هو في المقصود بذلك الخلط، وكيفيته. وهذه النطفة الأمشاج تعرف علميًا عند بدء تكوينها (بالزيجوت)[٥].

وقد كانت العرب وبعض الأمم تعتقد أن تكوين الجنين إنما يكون من الرجل، وليس للمرأة إلا الحمل والرعاية، وليس كذلك، بل إن الجنين يتكون من عملية التلقيح بين الحيوان المنوي للرجل والبويضة للأنثى ليكونا خلية واحدة تحمل الصفات الوراثية لكل منهما، وهي النطفة التي جاء وصفها في القرآن الكريم ب (النطفة الأمشاج)[٦].

ويمكن تقسيم النطفة الأمشاج إلى:

❁ **طور الخلق:** وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطور في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ [عبس: ١٨ - ١٩]

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٣٨٧.
(٢) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ١٦٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٥٥١، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٠٧، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٢١٤.
(٤) مقاييس اللغة ٥/ ٣٢٦.
(٥) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص٤٤.
(٦) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض، عبدالرحمن المطرودي ص٤٠.

Made searchable using ScribeTools.com

❁ **طور التقدير:** ذكر الحق سبحانه وتعالى التقدير بعد الخلق مباشرة بوصفهما عمليتين متعاقبتين في أول تطورات النطفة الأمشاج، وهذا هو ما يتحقق يقينًا، فبعد ساعات من تخلق إنسان جديد، تبدأ عملية أخرى تتحدد فيها الصفات التي ستظهر على الجنين(1).

المرحلة الرابعة من مراحل طور النطفة: مرحلة الحرث (الانغراس).

هذه المرحلة هي آخر مرحلةٍ في طور النطفة، وبنهايتها تنتقل النطفة الأمشاج لتنغرس في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية الحرث، وبهذا الانغراس يبدأ طور الحرث، ويكون عمر النطفة حينئذٍ ستة أيامٍ(2).

والحديث عن مرحلة الحرث يقتضي الحديث عن المكان الذي تستقر فيه النطفة في جسد المرأة، ألا وهو رحم المرأة، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى هذا المكان بوصفين جامعين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣].

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

(1) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٧٩.

(2) المصد السابق ص٨٠.

هذان الوصفان هما (قرار) و(مكين)، وهما يعبران أتم التعبير عن أهم خصائص الرحم ومميزاته. والقرار: المستقر، وهو موضع الاستقرار، والمراد بالقرار: الرحم، ومكينٌ: أي متمكنٌ قد هيئ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له(3).

الطور الثاني: طور التخليق.

ويشمل هذا الطور أربع مراحل هي: العلقة، والمضغة، والعظام، واللحم.

ومن أهم ما يميز هذا الطور هو التكاثر السريع للخلايا ونشاطها الفائق في تكوين الأجهزة، ولأن هذه العمليات التخليقية تتم بسرعة كبيرة، فقد استعمل القرآن الكريم حرف الفاء للربط بين مراحل هذا الطور.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤](4).

المرحلة الأولى: مرحلة العلقة.

تطلق العلقة في اللغة على عدة معانٍ منها:

١. التشبث بالشيء، يقال: علق الصيد في

(3) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٨، التفسير البسيط، الواحدي ١٥/ ٥٣٨.

(4) انظر: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٥، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٥٤.

الحبلة، وعلق دم فلانٍ بزيدٍ إذا كان زيد قاتله[١].

٢. دودة في الماء تمص الدم[٢].

٣. الدم الجامد الغليظ[٣].

وقد ورد ذكر العلقة في القرآن الكريم ست مراتٍ في خمسة مواضع على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة: ٣٧ – ٣٨].

وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ [العلق: ١ – ٢]

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن الجوزي: «سميت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به، فإذا جفت فليست علقة»[٤].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين في تفسير معنى العلقة، تبين أن أغلبهم فسروا العلقة بالدم الجامد أو العبيط[٥].

بيد أنه من المعروف علميًا أن الإنسان لا يمر بمرحلة الدم المتجمد أو كتلة الدم[٦].

لكن إذا عرفنا أن حجم العلقة عند انغرازها لا يزيد عن ربع مليمتر أدركنا على الفور لماذا أصر المفسرون على أن العلقة هي الدم الغليظ. فالعلقة لا تكاد ترى بالعين المجردة، وهي مع ذلك محاطة بالدم من كل جهاتها، فتفسير العلقة إذن بالدم الغليظ ناتج عن الملاحظة بالعين المجردة، ولم يبعد بذلك المفسرون عن الحقيقة كثيرًا، فالعلقة العالقة بجدار الرحم والتي لا تكاد ترى بالعين المجردة محاطةٌ بدمٍ غليظٍ يراه كل ذي عينين[٧].

وبعد أن تقدم العلم لاحظ العلماء أيضًا أن الجنين في هذه المرحلة يفقد شكله المستدير ويستطيل حتى يأخذ شكل دودة

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٣.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٧٥.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٠٦.

(٥) انظر: الكشاف ٤/ ١٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٩٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٩٧.

(٦) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٢٤٢.

(٧) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٢٠٦.

Made searchable using ScribeTools.com

العلقة، وفي هذه المرحلة يتشبث الجنين بالمشيمة بواسطة ساقٍ موصلةٍ تصبح فيما بعد هي الحبل السري وهو ما يتفق مع معنى (التشبث بالشيء)[1].

وبهذا نلاحظ أن لفظة (علقة) جاءت مطلقةً في القرآن الكريم لتشتمل على كل المعاني اللغوية السابقة، حيث إن اسم (علقة) يتسع ليشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة العلقة، كما يدل لفظ (علقة) على تعلق الجنين بالمشيمة. كذلك نجد أن المظهر الخارجي للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ[2].

المرحلة الثانية: مرحلة المضغة.

المضغة في اللغة: فعلةٌ من مضغ، وهي تطلق على عدة معانٍ منها:

١. الشيء الذي لاكته الأسنان[3].

٢. الشيء الصغير من المادة، مأخوذةٌ من قولنا: مضغ الأمور، أي صغارها[4].

٣. القطعة من اللحم قدر ما يمضغ[5].

وقد ورد ذكر المضغة في القرآن الكريم ثلاث مراتٍ في موضعين على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن قتيبة: «وسميت بذلك؛ لأنها بقدر ما يمضغ، كما قيل: غرفة لقدر ما يغرف»[6].

وقد فسرت المضغة بقطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغ[7]، وهو ما يتطابق مع المعاني اللغوية، وقد أوضح علم الأجنة الحديث مدى الدقة في اختيار القرآن الكريم لتسمية (مضغة) من حيث ارتباطها بالشكل الخارجي للجنين، وتركيباته الداخلية الأساسية. فقد وجد أنه بعد تخلق الجنين والمشيمة في هذه المرحلة، فإن

---

(١) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٠، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٨٧٤.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٢٢.

(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٨-٢٠، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٩.

(٦) غريب القرآن ص٢٩٦.

(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١٢.

الجنين يتلقى الغذاء والطاقة، وبذلك تتزايد عملية النمو بسرعةٍ، ويبدأ ظهور الكتل البدنية المسماة فلقات، والتي تتكون منها العظام والعضلات. ونظرًا لتعدد الفلقات التي تتكون، فإن الجنين يبدو وكأنه مادةٌ ممضوغة عليها طبعات أسنانٍ واضحة(1).

أطوار المضغة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ [الحج: ٥]. يتضح من هذه الآية أن هناك طورين للمضغة هما، الأول: طور المضغة المخلقة. والثاني: طور المضغة غير المخلقة.

وقد اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، وهل هي من صفات النطفة أم من صفات المضغة(2). والراجح- والله أعلم- أن معنى مخلقة، أي: تامة، وغير مخلقة، أي: غير تامة، وأن هذا من صفات المضغة، لأن ذلك تطورٌ من تطورات المضغة، والتخليق صيغةٌ تدل على تكرير الفعل، أي خلقًا بعد خلقٍ، والنطفة لا يمكن وصفها بذلك، كما أن تفسير (المخلقة) بتامة الخلق أو مستبينة الخلق، و(غير المخلقة): بغير ذلك، هو المشهور من كلام العرب.

المرحلة الثالثة: مرحلة العظام.

هذه المرحلة من أطوار خلق الإنسان وردت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]

العظام: جمع عظم، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب(3). والعظام المرادة في الآية هي عظام الجنين، جعلها سبحانه متصلبة ؛ لتكون عمودًا للبدن على أشكال مخصوصة(4).

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ نلاحظ أن استعمال حرف (ف) يشير إلى أن مرحلة العظام تنمو بعد مرحلة المضغة بفترةٍ قصيرةٍ؛ لأن حرف الفاء يفيد الترتيب والتعقيب، بخلاف حرف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي(5).

والمعنى: أن المضغة بعد أن تخلقت،

(1) انظر: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٩٣، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٧٠.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٢، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٨٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٢٣.

(4) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٩.

(5) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص١٠١.

Made searchable using ScribeTools.com

وتميزت أجزاؤها، جعلها الله تعالى عظامًا، أي: جعل من هذه المضغة عظامًا صلبةً تتحمل[1].

ومن ثم فإن المضغة لا تتحول كلها إلى عظامٍ- كما ذكر ذلك بعض المفسرين-، وإنما يتحول جزءٌ منها فقط، وهذا متفقٌ مع ما كشفه علم الأجنة. قال الألوسي وأبو السعود: قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ أي: غالبها ومعظمها أو كلها[2].

المرحلة الرابعة: مرحلة اللحم.

بعد خلق العظام تأتي مرحلةٌ تاليةٌ تتميز بكساء جميع العظام باللحم من كل الجهات، فبذلك يتغير شكل الجنين، ويصير هنالك تناسقٌ بين الأعضاء، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾[المؤمنون: ١٤].

أي: فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس[3].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين نلاحظ أنهم لم يخوضوا في تفصيلات إنبات اللحم على العظم، وإنما اكتفوا بما ذكرناه أو نحوًا منه بإيجاز شديد.لكن السؤال الذي يرد هنا، هل هذا اللحم من لحم المضغة أم لحمًا آخر خلقه الله على العظام؟

ذكر الألوسي قولين في تفسيره: الأول: أن ذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظامًا، بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها.

الثاني: يحتمل أن يكون لحمًا آخر خلقه الله تعالى على العظام من دمٍ في الرحم[4].

هذان القولان مبنيان على ما سبق ذكره من كون بعض المفسرين ذهب إلى أن المضغة كلها تتحول إلى العظام، وبعضهم ذهب إلى أن التحويل يكون لجزءٍ منها. وقد مال البيضاوي إلى القول الأول قائلًا: «قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها»[5].

الطور الثالث: طور النشأة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

والإنشاء كما ذكر الراغب: إيجاد الشيء وتربيته[6].والإنشاء هو الإحداث حالاً بعد حالٍ من غير احتذاء على مثال، ومنه يقال: نشأ الغلام وهي ناشئ: إذا نما وزاد شيئًا فشيئًا، وقال بعضهم: الإنشاء: ابتداء الإيجاد من غير سببٍ[7].

(١) زهرة التفاسير ٩/ ٥٠٥٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢١٦.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٦١.
(٤) روح المعاني ٩/ ٢١٧.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٦٤.
(٦) المفردات ص٤٩٣.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٨٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان، أي: ثم صيرنا هذا الإنسان بشرًا سويًا، بعد أن كان نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو هذه العظام، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أنه حق، إذ قدرته- سبحانه- لا يعجزها شيء[1]. وعليه: فقد صير الله تعالى هذا الإنسان خلقًا مباينًا للخلق الأول، حيث جعله حيوانًا، وكان جمادًا،وناطقًا وسميعًا وبصيرًا، وكان بضد هذه الصفات[2].

الإنسان بين الإيمان والكفر

خلق الله عز وجل الإنسان وسواه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكرمه وفضله على كثيرٍ من المخلوقات.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾[الإسراء: ٧٠].

وكان من مظاهر تشريف وتكريم الله للإنسان تكليفه، ومنحه نعمة العقل التي بها يوازن بين ما ينفع وما يضر، وبها يتلقى دعوات الأنبياء وما نزل به الوحي من السماء، وجعله مختارًا يستطيع أن يختار بين البدائل ما يشاء دون قسرٍ أو إجبارٍ، فله حرية الاختيار بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الانضواء في حزب الله أو حزب الشيطان.

وتظهر جليًا حرية الاختيار التي ميز الله بها الإنسان، من خلال قصة آدم عليه السلام الذي كان يملك القدرة على الاختيار بين طاعة الله ومعصيته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٠/ ١٨.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٥٦٥.

Made searchable using ScribeTools.com

تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١١٦ – ١٢١]

فالخطاب الموجه من الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام يدل دلالةً واضحةً على أنه موجه لمن يتمتع بحرية الاختيار، ولمن يمتلك الاستعداد نحو الطاعة والمعصية، ولمن هو موضع التكليف، ولذلك مارس آدم عليه السلام كامل حريته، وعصى الله، فالحرية مغروسةٌ في فطرة الإنسان منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام (١).

فالله تعالى أودع في الإنسان استعدادات وقدرات للتميز بين الخير والشر وبين الهدى والضلال، ومن الآيات الدالة على فطرية الحرية الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ – ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وبناءً على ذلك فالإنسان حرٌّ في اختيار نوع الطريق الذي يسلكه في الحياة الدنيا، فإما أن يختار طريق الحق والاستقامة أو أن يختار طريق الغواية والضلال (٢)، لكن الحق سبحانه وتعالى إذ جعله مختارًا لم يتركه سدًى، وإنما أرسل له الرسل وأنزل له الكتب وأرشده إلى الطريق الصحيح.

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير كما أنها صالحة للميل إلى الشر، فقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ – ٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

---

(١) المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن، هشام بني خلف ص١١-١٢.

(٢) المصدر السابق.

وقرن سبحانه صلاحية طبيعته للفجور والتقوى بمنحه القدرة على تحقيق ما تميل إليه نفسه، ويبين له أن نتيجة اختياره وثمرة عمله ستعود عليه، ومن نوع ما عمل.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ – ١٠][(١)].

وإذا كانت طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير وللميل إلى الشر، فإن الميل إلى الخير هو الجانب الأغلب في هذه الطبيعة، حيث إن الله عز وجل فطر الإنسان على الإخلاص والتوحيد إذ هو ما تقتضيه العقول السليمة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠].

وإنما كفر من كفر لعارضٍ أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[(٢)].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

[الروم: ٣٠].

يعني يخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أن الله لا يبدلها أي: لا يخلق الناس على غيرها، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى[(٣)].

وليس معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة)** أنه يخرج من بطن أمه وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، ولكن المراد أن فطرته موجبةٌ ومقتضيةٌ لمعرفة كل ما هو حقٌّ، فقد صرح القرآن أن الإنسان يولد وهو لا يملك من المعرفة شيئًا، ثم يتم اكتساب مهارات وقيم من خلال أدوات الطاقة التي منحه الله تعالى إياها.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

كما بين القرآن أن الإنسان إذا بلغ مبلغ الرشد، وأصبح مسئولًا عن تصرفاته فإنه ينقسم- بسبب اختياره وإرادته- إلى مؤمنٍ وكافرٍ، أو طائعٍ وعاصٍ، أو مهتدٍ وضالٍ، وتلك هي المرحلة التي نراها في كثيرٍ من آيات الله البينات، وقد حكم على الإنسان فيها بأحد الوصفين[(٤)].

(١) انظر: مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد مهنا، ص٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٥.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٨، ١٦٧.

(٤) مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد

Made searchable using ScribeTools.com

ويلاحظ أن القرآن الكريم في تقسيمه الإنسان إلى مؤمنٍ وكافرٍ، إنما يفعل ذلك بعد أن يذكر بعض النعم التي أسبغها على عباده جميعًا مما يستلزم الشكر والاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

نلمس المساواة بين الأفراد جميعًا في كل ما ذكر، ونجد أن النعم التي تحدث القرآن عنها لا دخل للفرد فيها، ولا إرادة له في الحصول عليها أو الحرمان منها، وإنما هي هبةٌ من الله له، أما ما بعد ذلك من قوله سبحانه في الآية نفسها: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ فهو ينطق بإسناد الشكر أو الكفر إلى الإنسان، وهو ما يحقق التفرقة بين من يعترف بالجميل ومن يجحد الفضل ولا يقدر النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. لا تخطئ المساواة التامة في ذلك بين أفراد النوع كله.

لكن التفرقة جاءت في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٥ – ٦].

وهي تفرقةٌ مشروعةٌ ومسببة.

وفي قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

تبرز المكانة التي أعدها الله لهذا الإنسان في هذه الحياة، وهي مرحلة الاختبار والابتلاء، وكما قرر القرآن وقررت الأديان السماوية جميعًا، لا بد من نتيجةٍ لهذه المرحلة.

ولا بد من تفرقةٍ بين من شكر النعمة ومن جحد بها وأنكرها، وهو ما نجده في الآيتين التاليتين: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧١ – ٧٢].

وفيما قصه القرآن الكريم من شأن آدم عليه السلام نجد هذا المنهج واضحًا جليًا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٧ – ٣٩].

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ

مهنا ص١٨-١٩.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ – ١٢٤].

فهداية الله إلى عباده والممثلة في رسالاته وهديه عامةٌ وشاملة، أما أثر هذه الهداية في الناس فيختلف باختلاف موقفهم منها وعليهم تبعات هذا الموقف. وهذا الذي وجه إلى آدم عليه السلام في أول عهد الإنسان بالحياة، وجه إلى ذريته كذلك

يقول جل شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥ – ٣٦][1].

ويلاحظ أنه ما من أمةٍ بعث الله إليها رسولًا إلا انقسم أهلها قسمين لا ثالث لهما: مؤمن وكافر، وإن تفاوتت درجاتهم في الدنيا واختلفت درجاتهم ودركاتهم في الآخرة. فالمؤمنون منهم السابقون، ومنهم أصحاب اليمين؛ والكافرون تختلف دركاتهم، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، حيث يعلوهم إخوانهم الكفار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

بين سبحانه أنه ما ترك أمةً من غير نذيرٍ، بل بعث في كل أمةٍ رسولها بالحق، وهذا من رحمة الله بعباده، حيث لم يتركهم دون عون لهم في صراعهم المستمر طول وجودهم في هذه الحياة، بل أنار أمامهم الطريق وتعهدهم في أطوار حياتهم بالرسالات التي بينت لهم ما تتطلبه الحياة الصالحة في كل عصر.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهادية المرشدة ما بين مهتد مؤمن، وما بين ضالٍ قد حقت عليه الضلالة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفقه لتصديق رسله والقبول منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم، آخرون حقت عليهم الضلالة فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله، وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ

(١) المصدر السابق ص١٩-٢٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٧.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

يعني: مؤمنون وكافرون(١).

وقد ذكر الله عز وجل هذه الخصومة في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وهذا أيضًا دليلٌ واضحٌ جدًا، على أنهم كانوا فريقًا واحدًا قبل أن يرسل الله إليهم صالحًا مجتمعين على الكفر، ثم انشق منهم فريقٌ آخر وهم نبي الله صالح ومن آمن به، ومن لم يؤمن بقي في الفريق الأول، ولا ثالث لهما.

صفات الإنسان

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بصفاتٍ عديدةٍ في القرآن الكريم، نتوصل من خلالها إلى فهم أنفسنا ومعرفتها، كي نحافظ على الجيد منها، ونعالج الرديء؛ ليستطيع الإنسان أداء رسالته، وهذه الصفات بعضها فطريٌ جبليٌ، وبعضها الآخر مكتسبٌ، وفي المطلبين الآتيين سأتناول تفصيل تلك الصفات.

أولًا: صفاتٌ فطرية:

١. الضعف.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه مخلوقٌ ضعيفٌ، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

أي خلقه الله والضعف ملازمٌ له، وليس الضعف المذكور هو الضعف البدني فقط، بل يشمل الضعف النفسي، وضعف العزيمة والإرادة، وضعف القدرة على الضبط الدائم تجاه دوافع نفسه وغرائزه وشهواته وأهوائه(٢).

وقال الراغب: ووصف الإنسان بأنه خلق ضعيفًا إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، نحو: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ١٨٠.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٠.

الله ومعونته، أو اعتبارًا بكثرة حاجاته، وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتبارًا بمبدئه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

وأما إذا اعتبر بعقله، وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى فهو أقوى ما في هذا العالم،ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠][1].

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفًا، فقد قضت حكمته عز وجل أن يراعي هذا الواقع فيه، في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم.

٢. العجلة.

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

أي في طبعه العجلة في الأمور، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير.وكما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

والعجل هو العجلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، ومعنى أنه خلق من عجل، المبالغة في عجلته، كما يقال: خلق من كرمٍ مبالغة في الكرم، والعرب قد

(١) المفردات ص٢٩٥-٢٩٧.

تسمي المرء بما يكثر فيه. وليس أصل فطرة العجلة من النقائص في تكوين الإنسان الفطري؛ لأنها تمثل في الإنسان عنصرًا مهمًا من حوافز الجد والعمل، ولكنها تغدو من النقائص حين يسيء الإنسان إدارتها، أو يهملها، إذ المفروض فيها أن تكون خاضعة لعقل الإنسان وإرادته، فإذا انعكس الأمر فصارت هي المسيطرة على العقل والإرادة، اختل توازن الإنسان وجانب سبيل الحكمة في الأمور[2].

٣. الجدل.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه أكثر شيء جدلًا، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

أي: وكان الإنسان بحسب جبلته، أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل[3].

قال الراغب: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرعٌ مجدولةٌ»[4].

وذهب الألوسي إلى أن الأليق بالمقام أن يراد به هنا الخصومة بالباطل والمماراة وهو الأكثر استعمالًا[5]. والسبب في

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٩٠.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٨٣.

(٤) المفردات ص٨٩.

(٥) روح المعاني ٨/ ٣٨٣.

Made searchable using ScribeTools.com

كون الإنسان أكثر شيءٍ جدلا أن القدرات الفكرية التي زود الله الإنسان بها، قد مكنته من استخدام حيلٍ كثيرةٍ، تعتمد على الإظهار والإخفاء، والمراوغة والمخادعة بمكرٍ عظيمٍ، فهو بذلك قادرٌ على أن يكون طويل النفس في المجادلة بالحق أو بالباطل [1].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

هذا وقع في قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالبٍ وزوجه فاطمة رضي الله عنها حين جاء إليهما ذات ليلةٍ ووجدهما نائمين فقال: (ألا تصليان)، قال علي رضي الله عنه : «إن أنفسنا بيد الله ولو شاء لأيقظنا»، فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [2].

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول عليه الصلاة والسلام قال في الفريضة: من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلها إذا ذكرها. فعذر الناسي والنائم وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ذلك، ولكنه يريد أن يحثهما، وأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة رضي الله عنها [3].

٤ . التقتير.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه قتورٌ في أصل فطرته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠].

والقتر والتقتير في اللغة: يعني الرمقة من العيش. والإقتار يقصد به: التضييق على الإنسان في الرزق، ولذا يقال: أقتر الله رزقه أي ضيقه وقلله. والقتر: ضيق العيش، يقال أيضًا: قتر الرجل على عياله: أي ضيق عليهم في النفقة [4].

وكلمة (قتور) صيغة مبالغةٍ على وزن فعول، وقد جاءت في القرآن دالةً على الإنسان البخيل الشحيح الذي يمسك عن الإنفاق.قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بخيلًا مضيقًا [5].

وبين الحق سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى أن بخل الإنسان سببه حبه للمال، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب تحريض النبي، صلى الله عليه وسلم، على قيام الليل، رقم ١٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام أجمع حتى أصبح، رقم ٧٧٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، سورة الكهف، ابن عثيمين ص٩٧ .

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٣٥٢٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٩٨، تفسير السمرقندي ٢/ ٢٨٥.

[العاديات: ٨].

ومما يدل كذلك على أن الشح صفةٌ ملازمةٌ للنفس الإنسانية بوجهٍ عام قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

٥. الهلع.

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه خلق هلوعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: ١٩].

والهلع: بعد الحرص. رجلٌ هلعٌ هلوعٌ هلواعٌ هلواعةٌ: جزوعٌ حريصٌ[١].

وقيل: الهلع: الجزع وقلة الصبر[٢]، وقيل: الهلع: أفحش الجزع[٣]، وقيل: الهلوع: الضجور[٤]، وقيل: الهلوع: الذي يفزع ويجزع من الشر[٥].

هذا ما فسر به بعض من أئمة اللغة لفظة (الهلع)، ولكن ابن عاشور علق على ما أورده أئمة اللغة قائلًا: « الجزع أثر من آثار الهلع وليس عينه، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معديكرب[٦]:

ما إن جزعتُ ولا هلعـ

ـتُ ولا يرد بكاي زندا

إذ عطف نفي الهلع على نفي الجزع، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف، ولو كان الهلع أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشوًا. والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه»[٧].

وقد فسر أكثر المفسرين وأهل اللغة الهلع الموجود في فطرة الإنسان بأنه ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وغيرهما عن عكرمة قال: سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه سئل عن ذلك أيضًا فقرأ الآية. وحكى نحوه عن ثعلب قال: قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه، يعني قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠- ٢١][٨].

(١) العين، الفراهيدي ١/ ١٠٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٧٦.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٤٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٦) البيت في ديوانه ص٥٩١.
(٧) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٦٧.
(٨) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٦٩.

Made searchable using ScribeTools.com

٧. الظلم والجهل.

وصف الإنسان بالظلم وبالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصواب ولا تظلم عنه، أي: لا تجر عنه[(١)]. والظلم: الاعتداء على حق الغير، وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة، وهو حق الوفاء بالأمانة[(٢)].

والجهل في اللغة: هو عدم العلم أو هو نقيضه. وفي قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣][(٣)].

والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمل به[(٤)].

قال المفسرون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: إنه كان مفرطًا في الظلم مبالغًا في الجهل -بحسب غالب أفراده-[(٥)] حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خان بضمانه فيها[(٦)].

وصفة الظلم والجهل أصل في الإنسان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان خلق ظلومًا جهولًا ؛ فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى ما يهواه من الشر؛ فيحتاج دائمًا إلى علمٍ مفصلٍ يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه»[(٧)].

٨. الطغيان.

بين الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنًى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧]. والطغيان في اللغة: مجاوزة الحد في كل شيءٍ، يقال: طغى الماء وطغى السيل إذا جاء بماءٍ كثيرٍ، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى الإنسان طغيانًا: جاوز القدر في الكبر والمعصية والكفر، وفيه إفراط ومبالغة في الشر والكبر[(٨)].

قال ابن عاشور: «التعريف في (الإنسان) للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٧١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٧١.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٩.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٣٨.
(٨) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٣.

الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه. وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم»[١]. ولما كانت صفة الطغيان ملازمة لمن يرى من الناس أنه استغنى، كان من التربية الربانية للناس أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان حبيس الحاجة والافتقار، في كل أمرٍ من أموره، حتى يرجع دائمًا إلى ربه[٢].

٩. الكنود.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾[العاديات: ٦].

والكنود في اللغة: وصف من أمثلة المبالغة من كند، يقال:كند يكند كنودًا: كفر النعمة؛ ورجلٌ كنادٌ وكنودٌ . وقيل: الكنود هو الجحود[٣].

وأصل الكنود الأرض التي لا تنبت شيئًا، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات[٤]، ولغات العرب مختلفة في معناه، فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي. والمعنى: لشديد الكفران لله[٥].

والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبًا، قال المفسرون: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾: أي طبع الإنسان على كفران النعمة[٦]، وهذا عارضٌ يعرض لكل إنسانٍ على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه وهو أمرٌ في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره[٧].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتدرون ما الكنود؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده[٨].

أي: أنه لا يعطي شيئًا مما أنعم الله به عليه، ولا يرأف بعباده كما رأف به؛ فهو كافر بنعمته، مجانف لما يقضي به العقل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٩.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٣١، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٩٣٦.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٢.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٤٣٦.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٣.
(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١٦٠، ص٦٥.

Made searchable using ScribeTools.com

والشرع[1]. وسر هذه الجبلة- أن الإنسان يحصر همه فيما حضره، وينسى ماضيه، وما عسى أن يستقبله؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده[2].

١٠. الفرح.

الفرح في اللغة: نقيض الحزن، وهو السرور، يقال: فرح يفرح فرحًا: سر وابتهج. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥].

والفرح أيضًا: البطر، يقال: فرح فلان: أي استخفته النعمة فأبطرته، فهو فرح وفرحان[3].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفرح على سبيل الذم وذلك بصيغة المبالغة (فرح) على وزن (فعل) للدلالة على بطر ذلك الإنسان الجاحد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ١٠].

فلفظ (فرح) مثال مبالغة، أي: شديد الفرح. وشدة الفرح: تجاوزه الحد والبطر والأشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: ٧٦][4].

فإن قيل ما وجه ذم الإنسان على الفرح وقد وصف الله الشهداء فقال: (فرحين)؟ أجاب عن ذلك ابن الأنباري فقال: إنما ذمه بهذا الفرح؛ لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله.

قال الشاعر:

ولا ينسيني الحدثان عرضي
ولا ألقي من الفرح الإزارا

يعني من المرح. وفرح الشهداء فرحٌ لا كبر فيه ولا خيلاء، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن[5].

وذهب بعض المفسرين إلى تمييز الفرح الممدوح من المذموم حسب وروده مقيدًا أو مطلقًا في القرآن، فقالوا: إن الفرح إذا جاء مطلقًا فهو مذموم، ولا يأتي ممدوحًا إلا مقيدًا بما فيه خير، كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[آل عمران: ١٧٠][6].

١١. الفخر.

الفخر في اللغة: التمدح بالخصال والافتخار وعد القديم، وهو المباهاة والتعاظم والتكبر، يقال: فخر فخرًا وفخارًا،

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٤٧، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.

فهو فاخرٌ وفخورٌ: تباهى وتكبر[(١)].

قال الراغب: الفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويقال له: الفخر، ورجلٌ فاخرٌ وفخورٌ وفخيرٌ على التكثير[(٢)].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفخر والمباهاة، وذلك بصيغة المبالغة (فخور) على وزن (فعول)؛ للدلالة على شدة التكبر والتعاظم عند الإنسان الجاحد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ١٠].

وفي هذه الآية بيان لحال ذلك الإنسان إذا منحه الله الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضرٍ من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، بل يقول مباهيًا بجحوده: ذهب السيئات، أي المصائب التي ساءته، وأصبح بطرًا أشرًا، متعاظمًا على الناس بما أوتي من النعم مشغولًا بذلك عن القيام بحقها[(٣)].

والفخر فيه أمران مفسدان للنفس: الأمر الأول: المطاولة على الغير وغمط الناس حقوقهم. الأمر الثاني: إنكار نعمة المنعم معتقدًا أنه مجهوده وعمله وليس بعطاءٍ من الله، وإن التفاخر يوهم صاحبه أنه في حالٍ لم يصل إليها غيره فيتخيل ما ليس عنده، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا حين قال: (كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرفٍ ولا مخيلةٍ)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦][(٤)].

ثانيًا: صفاتٌ مكتسبةٌ.

١. الكفر.

من أبرز وأكثر صفات الإنسان المكتسبة التي وردت في القرآن الكريم، صفة الكفر، وقد وردت خبرًا عن الإنسان في ستة مواضع، وهي صفةٌ قبيحةٌ ذمها الله تعالى حتى قال سبحانه: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧﴾ [عبس: ١٧].

والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزراع لستره البذر في الأرض، والكفر: نقيض الإيمان، وقيل: الكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر. ويقال: رجل كفار وكفورٌ: أي كافر، والكافر الجاحد لأنعم الله، ويطلق الكافر أيضًا على: البحر، والوادي العظيم، والنهر الكبير، والسحاب المظلم،

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٥٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٤.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٧٧، روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢١٦.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٤.

Made searchable using ScribeTools.com

والدرع[١].

وقال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق[٢].

وقد عبر القرآن الكريم عن كفر الإنسان بصيغة المبالغة (كفار) على وزن (فعال) وهي تفيد كثرة المزاولة للفعل وتكراره، و(كفور) على وزن (فعول) وهي تفيد الدلالة على المبالغة مع التجدد والاستمرار[٣]؛ وذلك للتشنيع على هذا الكفر الذي يقابل به الإنسان نعم ربه عليه.

ومن خلال استقراء أقوال المفسرين للمواضع الستة التي وردت فيها صفة الكفر خبرًا عن الإنسان، تبين أن كفر الإنسان في القرآن الكريم نوعان:

النوع الأول: الكفر المقابل للشكر، أو كفران النعمة، كما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ [هود: ٩].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٩٣-٢٠٢.

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٨٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٤.

(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية ص٩٤-١٠٠.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد قرن القرآن بين الظلم وهذا النوع من الكفر لأنهما يتقاربان في هذا السياق: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والنوع الثاني: الكفر المقابل للإيمان، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: ٨٩].

ومن تجليات هذا الكفر عدم إخلاص العبادة لله وحده وإشراك غيره معه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥﴾ [الزخرف: ١٥].

وقد بالغ هنا في إظهار فظاعة هذا الكفر حين وصفه بالمبين؛ أي بين الكفر.

٢. الفجور.

وصف الإنسان في القرآن الكريم بصفة الفجور، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾ [القيامة: ٥].

والفجور في اللغة: الانبعاث في المعاصي، يقال: فجر الإنسان يفجر فجرًا وفجورًا: انبعث في المعاصي، وقيل: فجر: إذا ركب رأسه غير مكترث[٤]. والفجور:

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٥٢.

فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة[١]. وأصل الفجور: الميل، وسمي الفاسق والكافر: فاجرًا، لميله عن الحق[٢].

والآية الكريمة التي عبرت عن فجور الإنسان تقفنا على حقيقة ذلك الإنسان الكافر الذي يرغب ألا يقيد أهواءه قيدٌ، بل يريد أن يمضي قدمًا على معاصي الله ما عاش راكبًا رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، ومن ثم فهو ينكر اليوم الآخر لما يترتب على إيمانه به من قيود وضوابط[٣].

٣. المخاصمة.

صفة الخصام من صفات الإنسان المكتسبة، وقد عبر عنها القرآن بصيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ﴾ في موضعين؛ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤].

وفي قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

خصيمٌ: صيغة مبالغةٍ على وزن (فعيلٌ) بمعنى: شديد الخصومة، أو كثير الخصام، ويجوز أن تكون بمعنى مخاصم، وإتيان الفعيل بمعنى المفاعل كثيرٌ في كلام العرب،كالخليط بمعنى المخالط، والقعيد بمعنى المقاعد، والجليس بمعنى المجالس، ونحو ذلك، ومعنى (خصيمٌ) جدول بالباطل[٤]. ومبينٌ: اسم فاعل أبان اللازمة، بمعنى بان وظهر[٥]. ومعنى المبين: المظهر لما يقوله، الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه[٦].

وجاء التعقيب في الموضعين بذكر هذه الصفة بعد الحديث عن خلق الإنسان، والتنبيه على أن الله عز وجل خلقه من نطفة، أي من ماءٍ مهينٍ، وصوره ونقله من حالٍ إلى حالٍ، وأخرجه إلى ضياء الدنيا وغذاه ورزقه وقواه، حتى إذا استوى، كفر بخالقه وجحد نعمته، بل خاصمه في أمر عظيم كأمر البعث، فأنكره وساق حججه على ذلك فقال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

وعبد ما لا يضره وما لا ينفعه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٥].ونسي خلقه، وانتقاله من ماء، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظم، إلى تصوير، إلى خروج إلى الدنيا، وضعف إلى قوة، وضعف بعد قوة[٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٤١.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٨١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٢١٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٧٢.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٠٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١.
(٦) فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣٢٥.
(٧) انظر:الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي

Made searchable using ScribeTools.com

وجاءت صفة الخصام في هذين الموضعين مقترنة بصفة الإبانة: ﴿مُّبِينٌ﴾ التي كانت من أعظم منن الله على الإنسان بعد منة الخلق: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ [الرحمن: ٣ – ٤].

٤. اليأس.

اليأس في اللغة: القنوط، ضد الرجاء أو قطع الأمل، يقال: يئس من الشيء ييأس: أي انقطع أمله. ويئست المرأة: أي عقمت فهي يائسة. ويقال: رجلٌ يائسٌ ويئوسٌ: أي شديد اليأس[1]. ويئوس: فعولٌ من قول القائل يئس فلانٌ من كذا فهو يئوس إذا كان صفة له[2].

وقد ورد لفظ (يئوس) في القرآن الكريم في أكثر من موضع بصيغة المبالغة دالًا على وصف الإنسان باليأس الشديد إذا أصابه شرٌ أو ضررٌ أو سلبت منه نعمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ [هود: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]

ففي هذه الآيات الكريمة بيانٌ لحال الإنسان الكافر في اختبار الله له بزوال النعمة أو إصابته بالشدة والضر، فإنه يصير يئوسًا؛ وذلك لأنه يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى، فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وكل ذلك لأنه مادي لا يؤمن إلا بالمادة، ولا يرجو ما عند الله الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل[3].

٥. القنوط.

القنوط في اللغة: مصدر قنط، يقال: قنط يقنط ويقنط قنوطًا، وقنط قنطًا وهو قانطٌ: يئس. فالقنوط: اليأس، وقيل: اليأس من الخير، وقيل: أشد اليأس من الشيء[4].

وقد ورد لفظ (قنوط) بصيغة المبالغة في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ فقط، دالًا على شدة يأس الإنسان، في قوله جل وعلا: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

أي: يئوس من الخير، قنوطٌ من الرحمة. وقيل: قنوطٌ أي: سيء الظن بربه، كأنه يقول: لا يكشف الله تعالى ما بي من البلاء

طالب ٦/ ٣٩٥٠.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٩٤٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٣٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٩٩، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٣.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٥٦.

والشدة[(١)].

وقد فرق بعض المفسرين بين اليأس والقنوط؛ إذ لو كانت الكلمتان متطابقتين لاستغنى السياق القرآني عن واحدة منها، فقالوا: اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر ويتذلل[(٢)].

وقال بعضهم: هما مترادفان؛ وذكرهما معًا للتأكيد[(٣)].

وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط.

قال تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦][(٤)].

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٥٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٠.
(٣) حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٦/ ١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١١.

الإنسان والشيطان

بين لنا القرآن الكريم- في آياتٍ كثيرةٍ - أن علاقة الشيطان بالإنسان علاقة عداوة، وهي من سنن الله الكونية التي قررها الله عز وجل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[فاطر: ٦].

والهدف منها واضحٌ جليٌّ ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

ويرجع تاريخ تلك العداوة إلى اليوم الذي شكل الله عز وجل فيه آدم عليه السلام قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ويقول: لئن سلطت علي لأعصينك، ولئن سلطت عليك لأهلكنك. فعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما صور الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك»[(٥)]. فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر، فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم ٢٦١١، ٢/ ١٢١٠.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. فكان الاستعلاء والاستكبار من قبل إبليس ردًا على الأمر الإلهي بالسجود، إذ يعتقد بأفضليته وخيريته على آدم فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: ٦١]. والحسد على تكريم الله إياه، قال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فكان جزاؤه أن عامله الحق سبحانه وتعالى بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا، ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: ١٣].

لكن إبليس لم يرد أن يترك جهلًا محادته لله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: ١٤].

أي: أمهلني فلا تعجل بموتي إلى يوم يبعثون، وقد ذكر ما يريد عمله من ذلك الإمهال وهو إضلال الناس، فأجابه الله إلى طلبه ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: ١٥].

وقطع اللعين على نفسه عهدًا بإضلال آدم وذريته والكيد لهم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

وابتدأ اللعين يعد عدته ويدبر للفتك بآدم وذريته، فبعد أن أكرم الله عز وجل آدم بأنواع التكريم، وأسجد له ملائكته، وبعد ما تحقق من إبليس ما تسبب في طرده- لعنه الله- من الجنة، زاد حقده على آدم أن يسكن الجنة التي طرد منها بسببه.

فعقد العزم على إغواء أبينا آدم، فجاءه وزوجه بطريق الوسوسة: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢٣]

بل أقسم على إضلال آدم وذريته، كما أخبر القرآن الكريم على لسانه: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٢ – ٦٥].

وقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان وبيان عداوته للإنسان، فقد ورد ذكره بصفة المفرد في سبعين آية، وبصفة الجمع في ثماني عشرة آية' وذلك لشدة عداوته وفتنته، ومهارته في الإظلال، ودأبه وحرصه على ذلك.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم في ذكره لكلمة (عدو) نجد أنها وردت مقرونةً بوصف (مبين) تسع مراتٍ، ثمانية منها في شأن العداوة مع الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٥].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها، عداوته جلية واضحة[1].

والموضع الوحيد الذي وصفت فيه عداوة غير الشيطان بهذا الوصف هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١].

وزد على ذلك أن (الخسران) لم يوصف بأنه مبيِّن إلا في سياق العلاقة مع الشيطان! وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٩٩.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

وعداوة الشيطان للإنسان مستمرةٌ لانهاية لها بل هي باقيةٌ أبد الدهر، بيد أنه لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوقٌ باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر، ويزين له ارتكاب الخطيئة بإرادته، ويعد مسئولا عنها مسئولية تامة.ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان، وأثره على إرادته، والحكمة الربانية من وجوده.

الحقيقة الأولى: تتلخص في أن الشيطان ليس له سلطانٌ على إرادة الإنسان، إلا من سلم قيادة نفسه له وتبعه مختارًا لنفسه طريق الغواية، ونجد الدليل على هذه الحقيقة في عدة نصوصٍ قرآنيةٍ، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين:

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾[الحجر: ٤٢].

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥﴾[الإسراء: ٦٥].

ومنها قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: ٩٨ – ١٠٠].

فمن الظاهر في هذه النصوص أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطانًا على الإنسان، وأن سلطانه لا يكون إلا على الذين يتولونه، ويجعلونه قائدًا لهم، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية.

ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه في الدنيا.

ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بقادرٍ على إغاثتكم وما أنتم بقادرين على إغاثتي، حينما يصرخ كلٌ منا طالبا من صاحبه أن يغيثه فيرفع عنه عذاب الله.

الحقيقة الثانية: تتلخص في أن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس له قدرة على أكثر من ذلك،

ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية، وتزين له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ - ٦]

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد: ٢٥].

أي: غرهم بالأماني والآمال في وساوسه وتسويفاته، وهذا ما فعله مع آدم وحواء، إذ كانا في الجنة فوسوس لهما فأخرجهما من الجنة. فكيد الشيطان في الإضلال كيدٌ ضعيفٌ، وبذلك وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

الحقيقة الثالثة: تتلخص في أن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسمًا من مسئولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذرًا بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له.وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلةً في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه. وهذا الشعور الذي يشعر به المخطئ، قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذًا بالله من الشيطان، ساعيًا في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه؛ إذ من وسائل الإصلاح التربوي فتح باب العذر لمن نربيه إذا ارتكب الخطيئة، ولو عاقبناه عليها نظرًا إلى مسئوليته، وذلك لنبقى له مجالًا يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه، ولنبق له مجالًا للارتقاء في مراتب الكمال الإنساني[1].

[انظر: آدم: آدم وإبليس]

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ١٧٣.

Made searchable using ScribeTools.com

نداءاتٌ ووصايا للإنسان

جاءت النداءات والوصايا من الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم كي ترشد الإنسان إلى الطريق القويم ليفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل إذا كان قد جعل الإنسان مختارًا فإنه لم يتركه سدى، بل أرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، وأرشده إلى الطريق الصحيح، ولذا كان حريٌّ بالإنسان أن يعنى بتلك النداءات والوصايا، وقد ورد نداء الإنسان في القرآن في موضعين، وفي استخدام أسلوب النداء تلطفٌ بالمخاطب، بخلاف مواجهة المخاطب بالأمر والنهي مباشرة فإن فيها جفوة وقسوة، كما جاءت وصية الله للإنسان في ثلاثة مواضع جميعها توصية بالإحسان إلى الوالدين، وفي استخدام أسلوب الوصية أثرٌ بالغٌ في النفس وأقوى في الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف، وفي المطلبين الآتيين بيان لتلك النداءات والوصايا.

أولًا: نداءات الله للإنسان:

ورد نداء الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

النداء هنا للتنبيه، تنبيهًا يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، فليس النداء مستعملًا في حقيقته، إذ ليس مرادًا به طلب إقبال، ولا هو موجه لشخصٍ معينٍ أو جماعةٍ معينةٍ، بل مثله يجعله المتكلم موجهًا لكل من يسمعه بقصدٍ أو بغير قصدٍ[(١)].

والتعريف في (الإنسان) تعريف للجنس، وعلى ذلك حمله جمهور المفسرين، أي: ليس مرادًا إنسانًا معينًا، وقرينة ذلك سياق الكلام عقبه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: ٩ - ١٠][(٢)].

وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث[(٣)].

وقد خاطب الله عز وجل الإنسان بصفة الإنسانية التي تميزه على المخلوقات؛ ليرعوي ويتذكر أنه إنسان مكرمٌ حريٌّ به أن يستجيب لمن أكرمه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى. ففي هذا الخطاب: استدعاء لمعاني الإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، من قوى عاقلة مدركة، من شأنها أن تميز بين الخير والشر، وتفرق بين الإحسان والإساءة[(٤)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٦٩.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٨٤٠.

فتصدير الآية القرآنية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أي: تنبه!!

إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبغي أن يوجد معها الغرور، ومع ذلك وجد منك الغرور، واغتررت بربك الكريم، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك، ولكنه سبحانه وتعالى رب كريم، فما داعي الغرور إذًا؟!.

ويلاحظ أن جملة النداء وليها الجملة الاستفهامية ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهي تقرر وتوضح كرم الربوبية، وفي ذلك لفت وإثارة، والمعنى: أي شيءٍ خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر، ولا تزال أياديه تتوالى عليك، ونعمه تترى لديك؟[1].

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: جهله، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾[الأحزاب: ٧٢][2].

وقيل: غره عدوه المسلط عليه. وقيل: غره ستر الله تعالى عليه. وقيل: غره كرم الله تعالى. وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه[3].

قال ابن جزي: «ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ لأن كل واحدٍ منها مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قومًا، وبعضها يغر قومًا آخرين»[4].

ثم يفصل الله عز وجل شيئًا من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير. يفصل شيئًا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية، فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله[5].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ وهذه صفاتٌ مقررةٌ للربوبية مبينةٌ وموضحةٌ لكرم الله على الإنسان.حيث إنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم، ذكر هذه الأمور الثلاثة (الخلق والتسوية والتعديل)، كالدلالة على تحقق ذلك الكرم، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ لا شك أنه كرمٌ؛ لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جعلك سويًا سالم الأعضاء، ونظيره قوله تعالى:

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ١٢٢.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٠.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٧.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].

أي: معتدل الخلق والأعضاء(١).

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: عدل أعضاءك بعضها ببعض، أي وازن بينها، فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى، ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، وشبه ذلك من الموازنة(٢).

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة تعدد الصلات وإن كان بعضها قد يغني عن البعض، فإن التسوية حالة من حالات الخلق، وقد يغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولكن قصد إظهار مراتب النعمة، وهذا من الإطناب المقصود به التذكير بكل صلة والتوقيف عليها بخصوصها، ومن مقتضيات الإطناب مقام التوبيخ(٣).

ثم أجمل ما فصله أولًا بقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾: أي ركبك في صورةٍ هي من أبهى الصور وأجملها، وأدلها على بقائك الأبدي في نشأة أخرى بعد هذه النشأة، فإن الكريم يوفي كل مرتبة من الوجود حقها، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر، وإنما الذي يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها، ولا فناء بعدها، يوفى كل ذي حق حقه، وكل عامل جزاء عمله(٤).

نخلص من ذلك: إلى أن هذا النداء للإنسان فيه توبيخٌ له على جحود النعم وتحذيرٌ له من الانهماك في الدنيا، فالله عز وجل خلقه في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

ومنحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأهم هذه النعم ما يتعلق بنفسه، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئًا، وجعله سليم الأعضاء منتصب القامة، متناسب الأعضاء، وصوره في أحسن الصور وأعجبها، ومنحه عقلًا امتاز به على كثير من المخلوقات: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٩٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٥.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.

﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ كي يحقق العبودية لله تعالى، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فهل يليق بالإنسان بعد هذا الإكرام أن يكفر بنعمة المنعم أو يجحد إحسان المحسن؟.

والموضع الثاني: قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥]

والخطاب عام لكل إنسانٍ، فاللام في قوله (الإنسان) لتعريف الجنس وهو للاستغراق، كما دل عليه التفصيل في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾[1]. فهو يشمل كل فردٍ من أفراد الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإعلام كل فرد فأنه محل عناية الرب في خطابه[2].

والمقصود الأول من هذا وعيد المشركين؛ لأنهم الذين كذبوا بالبعث.

فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإنذار، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير[3].

وفي هذا الخطاب كذلك يستدعي الحق سبحانه وتعالى في الإنسان صفة الإنسانية التي تفرده في هذا الكون بخصائص من شأنها أن يكون أعرف بربه، وأطوع لأمره، ولعل في طبيعة هذا النداء ما يلفت الانتباه إلى هذه الربوبية، والدعوة للعودة إليها، بما يوحيه هذا النداء من بلاغةٍ في الخطاب، وذلك بما فيه من التخصيص لكل فردٍ فيه.

فهي دعوة تمتلئ شفقة ورحمة بالإنسان ليعود إلى ربه بما تحمله كلمة الرب من معاني العناية والرعاية، وكذلك بما توحيه أداة النداء التي للبعيد تنبيهًا على أن معاصيه أبعدته عن القرب من الله، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]

و(الكادح): العامل بشدةٍ وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: **(من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته حدوثًا أو كدوحًا في وجهه يوم القيامة)**[4].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٧/ ٢٥٩، رقم ٤٢٠٧، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، ٢/ ١١٦، رقم ١٦٢٦، والنسائي في سننه، باب حد الغنى، ٥/ ٩٧، رقم ٢٥٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى،

Made searchable using ScribeTools.com

والمعنى: يا أيها الإنسان المجد في سعيه، النشيط في عمله السريع في تحصيل معاشه وكسبه: إنك تكدح في طلب الدنيا، حتى استبطأت حركة الزمن، وكم تمنيت نهاية اليوم أو الشهر أو العام لتحصل على طلبك، أيها الإنسان ما أجهلك!!

ألم تعلم بأن هذا كله من عمرك، وأنت تكدح صائرًا إلى ربك، وتجدك واصلًا إلى نهايتك وموتك.

قال الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي
وكان ذهابهن له ذهابا

فأنت تجد في السير إلى ربك، فتلاقي عملك هناك أوضح من الشمس، فاعمل في دنياك على هذا الأساس. ستلاقي ربك يوم القيامة، وستلاقي عملك يوم يقوم الناس للعرض على الملك الجبار ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨][(١)].

وقد خلق الله الإنسان ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا في محيط الكبد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

أي: في محيطٍ من الشدة والمشقة والضيق، لذلك فهو بحاجة لتحقيق مطالبه من خيرٍ أو شرٍ إلى الكدح، أي: إلى السعي والعمل بنصبٍ ومشقةٍ.

فالإنسان حريصٌ على البقاء، ومن أجل ذلك فهو يتحمل أنواعًا من الكدح والمكابدة، فلا نكاد نجد في الناس إنسانًا غير كادحٍ، وهذه حقيقةٌ مشاهدة في السلوك الدائم للإنسان.

وهي التي جعلت المعري يقول[(٢)]:

تعبٌ كلها الحياة فما أع
جب إلا من راغبٍ في ازدياد

ولا يشترط أن يكون الكدح في عملٍ جسديٍ، بل قد يكون في حركاتٍ نفسيةٍ ذات مشقةٍ على النفس أكثر من حركات الكد الجسدي، فمن الكدح ما يعانيه الإنسان من أمراضٍ، وأوجاع، وآلامٍ، جسديةٍ ونفسيةٍ. ومن الكدح ما يعانيه الإنسان من آلام المصائب في الأموال والأنفس، وفقد الأحبة.

ويستمر كدح الإنسانِ حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وملاقاة ربه بالموت، وبعد ملاقاته ربه بالموت تبدأ مرحلة ملاقاة حسابه، وفصل القضاء بشأنه، ومجازاته على ما كسبه بإرادته في رحلة امتحانه، وأكبر ذلك ما يكون يوم الدين[(٣)].

وما دام الإنسان في ظروف الحياة التي

١/ ٥٨٩، رقم ١٨٤٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٩٩، رقم ٤٩٩.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٦٨.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٨.

(٣) المصدر السابق.

تتطلب منه أن يكون كادحًا في الخير أو في الشر، فإن العقل السديد والرأي الرشيد يوجبان عليه أن يكدح كدحًا يحقق له النجاح في الدنيا، وأكبر حظٍ من سعادة النفس فيها، ثم يحقق له مرضاة الله والسعادة الخالدة عنده يوم الجزاء الأكبر[1].

وقد فصّل الحق سبحانه وتعالى الإجمال الذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۞﴾ مبينًا أحوال الإنسان عندما يلاقي ربه، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞﴾[الانشقاق: ٧ – ٩].

أي: وهناك في موقف الحساب، يؤتى كل إنسانٍ كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۞﴾[١٣– ١٤: الإسراء].

فأما من أوتى كتابه بيمينه، فهو من أهل السلامة والنجاة. إنه يحاسب حسابًا يسيرًا، لا رهق فيه، لا عسر. فما هو إلا أن يعرض في موقف الحساب، حتى يخلى سبيله. ففترة العرض والانتظار، هي هذا الحساب اليسير. ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من حوسب يوم القيامة عذب)**. قالت: فقلت: يا رسول الله: أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞﴾[الانشقاق: ٧ – ٨]. فقال: **(ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)**[2].

ثم ينقلب من هذا الحساب– وقد برئت ساحته– يزف إلى أهله من إخوانه المؤمنين بشرى نجاته وسلامته، وقد غمره السرور، وفاض عليه البشر فلا يملك إلا أن يهتف بكل من يلقاه من أهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۞﴾[١٩: الحاقة][3].

يلحظ مما سبق أن النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ لم يأت إلا في موضعين؛ الموضع الأول: في سورة الانفطار، والموضع الثاني: في سورة الانشقاق، وقد جاء النداء فيهما بعد الحديث عن أهوال القيامة وبداية اللقاء الأخروي، وتذكيره بأمره وبمصيره الذي هو صائر إليه، وهذا يدل على الرعاية الحانية للإنسان كي يتنبه قبل فوات الأوان، وهذا واضحٌ جدًا من أسلوب الخطاب في الموضعين.كما يلحظ أن (الإنسان) عندما ينادى في القرآن فهو وإن كان عامًا إلا أن

(١) الأخلاق الإسلامية، الميداني ١/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فلم يفهمه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب، ٤/ ٢٢٠٤، رقم ٢٨٧٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٥٠٣.

Made searchable using ScribeTools.com

ملاحظة معنى الإنسانية مراد ومطلوب، بخلاف (الناس) فإن ملاحظة الجنس هي المطلوبة أولًا. وكلا النداءين يقتربان في أن المطلوب من الإنسان فيهما أن يعلم أنه ملاقٍ ربه فعليه أن لا يغتر بكرمه فيعمل ليوم الدين، كما ترشد إلى ذلك آية الانفطار، كذلك آية الانشقاق تلتقي مع أختها في ضرورة أن يعمل الإنسان في سعيه خيرًا فهو لا محالة ملاقٍ ربه.

ثانيًا: وصايا الله للإنسان:

الوصية كما عرفها الراغب الأصفهاني: «التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظٍ، من قولهم: أرضٌ واصيةٌ: متصلة النبات، ويقال: أوصاه ووصاه، قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[البقرة: ١٣٢].

وقرئ: (وأوصى) قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ﴾ [النساء: ١٢].

﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ووصى: أنشأ فضله، وتواصى القوم: إذا أوصى بعضهم إلى بعضٍ، قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③﴾ [العصر: ٣].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣]»[1].

والوصية شأنها في نفس من تربى على الإيمان أعمق وأبعد أثرًا، لاسيما حينما تكون من صاحب نعمة، ومن صاحب الأمر والتدبير وموجد الخلق أجمعين، فهي تحمل معنى الأمر وتحمل معنى الالتزام.

والفرق بين الأمر الصريح والوصية، أن آخر ما استقر الأمر عليه الوصية، وبهذا تكون الوصية خالدة مخلدة، وهي أيضًا في قوتها أقوى من الأمر وفي أثرها أبلغ منه .ومن هنا كان أسلوب الإيصاء أقوى في البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف.

وإذا كان هذا هو شأن الوصية، فقد وصى الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه؛ لأنهما سبب وجوده، ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، وذلك في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨]

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى

(١) المفردات ص٥٢٥.

﴿الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

[لقمان: ١٤-١٥]

الموضع الثالث: قوله جل شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦]

وجاءت وصية الله عز وجل للإنسان بالفعل (وصى) المشدد فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ للدلالة على المبالغة والتكثير، ووصية الله عز وجل للإنسان- في هذه المواضع الثلاثة- هي أمرٌ وعزيمةٌ وتكليفٌ.

ذكر بعض المفسرين: أن هذه المواضع الثلاثة التي ورد فيها توصية الله عز وجل الإنسان بوالديه نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص[(١)]. والراجح- والله أعلم- أن الآيات عامة في جميع الناس، وإن كانت نزلت في شأن شخص عين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله. ويكون المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ جنس الإنسان.

فهي وصيةٌ صادرةٌ من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمةٌ على أساس إنسانيته، وهي وصية بالإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرطٍ ومن كل قيدٍ، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، دون الحاجة إلى أية صفة أخرى.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير[(٢)].

ونلحظ أن الآيات في الموضعين الأول والثالث جاءت منوهة بالحسن في وصيتها بلفظ ﴿حُسْنًا﴾ في الموضع الأول، وبلفظ ﴿إِحْسَانًا﴾ في الموضع الثالث، أما الموضع الثاني فقد تركت الوصية مفتوحة.

فما المراد بالإحسان؟ وهل هناك فرق بين لفظي ﴿حُسْنًا﴾ و ﴿إِحْسَانًا﴾؟

قال الراغب الأصفهاني: «الإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلانٍ، والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٥٧، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦١.

Made searchable using ScribeTools.com

رضي الله عنه:(الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة»[1].

ومعنى ﴿حُسْنًا﴾ أي: وصيناه فعلًا ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، والحسن خلاف القبح، ثم أقام الصفة مقام الموصوف؛ وهو الأمر، ثم حذف المضاف وهو (ذا) وأقام المضاف إليه مقامه، وهو (حسن)؛ من: حسن يحسن حسنًا، ومعنى ﴿إِحْسَانًا﴾ :أي تحسن إليهما إحسانًا، من: أحسن يحسن إحسانًا، والإحسان خلاف الإساءة[2].

وقد جاءت الوصية من الله عز وجل مباشرةً بالوالدين بالإحسان إليهما، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

يأمر الحق سبحانه وتعالى الإنسان بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق.

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨].

أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⁽٨⁾﴾ فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا[3].

وفي الموضع الثاني تأتي الوصية مفتوحة أو مطلقة ففي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ذكر عز وجل ضعف الأم بصفة الوهن، والوهن: الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء[4].

كأنه عز وجل لما ذكر ضعف الأم بوصفه ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ترك الوصية مطلقةً فلم يحددها بالقول إحسانًا أو حسنًا، فإن مراتب هذه المفردات على سموها لا تفي حق الوالدين، وإن كان ذكر الأم على التخصيص دون الأب مع أن الوصية بكليهما؛ لأنه ادعى للشفقة، فهو لمما يدر هذه الشفقة تجاه الوالدين. كما أن هذا الحمل أظهر وأوضح في وقوعه، وهو أيضًا من الأشياء التي تنسى بسهولةٍ بعد حصولها، كما أنها هي الأصل الظاهر في وجود هذا الإنسان، وإن كان للأب لا شك دورٌ جوهريٌّ، أضف إلى ذلك عملية تعميق دور الأم ورسالتها بذكر الحمل

(١) المفردات ص١١٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٧.

ووهنه على وجه الخصوص، ولذلك كان الوصف لصورة هذه الأم الواهنة الكارهة للحمل، ولكن الوصية للاثنين والشكر لهما معا، كما أن رفض الطاعة في الإشراك بالله لكليهما إن صدر من كليهما.

ونرى هذا التنديد بالشرك واضحًا عندما نبه على أن شكر الوالدين جاء مقرونًا بشكر الله، ثم نوه على المرجعية إليه في قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وفي الآية اللاحقة أكد صراحةً رفض الشرك حينما قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥]

فالوصية بهم والإحسان إليهم لا يجب أن يؤدي بحالٍ من الأحوال إلى الشرك حتى في أقصى الظروف من مجاهدتهم إياكم، والسبيل إلى ذلك باتباع سبيل من أناب إلى الله وأدرك مرجعيته الحقة، وإن كان ولابد في كل هذه الظروف من الإبقاء على مصاحبة الوالدين بالمعروف.

وهنا تبرز قدرة المؤمنين على هذا التوازن الدقيق بين قوة الإيمان الرافضة للإشراك وهي قوة النفس المصاحبة بالحسن للأبوين المشركين بالمعروف المألوف[(١)].

وفي الموضع الثالث نجد أن الإحسان جاء في مقابلة الكره الذي تعانيه الأم، حيث يصور القرآن تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبدًا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس!

إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة[(٢)].

كما توضح الآيات أن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده، فهو موصى بوالديه حسنًا في الأطوار الموالية لفصاله، فيوصيه وليه في أطوار طفولته، ثم

(١) ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن، أروى التل، ص٢٨٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٢.

Made searchable using ScribeTools.com

عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه[1].

فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥].

والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية[2].

ويلحظ في الموضعين الثاني والثالث أن الله تعالى جعل لكلٍ من الأم والوالد نصيبًا من الوصية، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل، وبدرجة الرضاع، فتحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم - حين قال له رجلٌ-: من أبر؟ قال: (أمك، قال:ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك)[3]، فجعل له الربع من المبرة كالآية[4].

يتبين من خلال ما سبق: أن تلك الوصايا الصادرة من خالق الإنسان إنما هي لجنس الإنسان كله، حيث إنها قائمةٌ على أساس إنسانيته، توصيه بالإحسان لوالديه، مبينة على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها، فقد ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: ١٤]، كما ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إشعارًا بمبلغ استحقاقها للإحسان والرعاية، شكرًا لها على ما قدمت من عطاء دفعت إليه دوافع الرحمة.

ولما كانت العناية الربانية هي المهيمنة على الإنسان منذ نشأته، والمسايرة له مدى وجوده، كان من حقه على عباده أن يشكروه. ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان:١٤].

فشكر الوالدين حق وواجب لكنه مسبوق وهو تابع. فإن اختلفت العقيدة سقط حق الطاعة لهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: ١٥].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٤٧.

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأجل، الناس، النفس